The North African Journal of Scientific Publishing (NAJSP)
مجلة شمال إفريقيا للنشر العلمي (NAJSP)
EISSN: 2959-4820
Volume 1, Issue 4, October-December 2023, Page No: 96-113
Website: https://najsp.com/index.php/home/index
SJIFactor 2023: 3.733 معامل التأثير العربي (AIF) 2023: 0.63 ISI 2023: 0.383

شعر علي آدم بحر التشادي
دراسة في المضامين والأساليب اللغوية

د. أمين علي دهب[1*]، د. ربيع يعقوب آدم [2]
[1] محاضر جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دوبا، تشاد
[2] محاضر جامعي، كلية اللغات والآداب والفنون والإعلام، جامعة أنجمينا، تشاد

Ali Adam Bahr Chadian Poetry
A Study of Linguistic Contents and Methods

Dr. Amine Ali Dahab[1*], Dr. Rabi Yacoub Adam [2]
[1] University Lecturer, Faculty of Arts and Human Sciences, University of Doba, Chad
[2] University lecturer, Faculty of Languages, Literature, Arts and Media, University of N'Djamena, Chad

[*]Corresponding author aminealidahab@gmail.com [*]المؤلف المراسل
تاريخ الاستلام: 2023-09-12 تاريخ القبول: 2023-10-22 تاريخ النشر: 2023-11-03

الملخص

تناولت هذه الدراسة المضامينَ والأساليب في شعر علي آدم بحر، أحد الشعراء التشاديين المعاصرين، وسلطت الضوء على القيمة الأدبية والفكرية لأشعاره، وناقشت ما اعتراها من أخطاء لغوية وأسلوبية، بدافع النقد العلمي الهادف إلى توثيق الشعر العربي التشادي، والتعريف به، وكشف جوانب القوة والضعف فيه من منظور لغوي أسلوبي، ولذلك ناقشت الدراسة قاموس الشاعر اللغوي، ومدى توظيفه قواعدَ اللغة العربية في استعمال هذا القاموس.

ولمعالجة هذه القضايا استُخدم المنهج التكاملي الذي يجمع بين المنهج الوصفي والتحليلي، حتى توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، منها:

- أبرز الموضوعات التي تناولها الشاعر علي أدم بحر، هي: المديح النبوي، ومدح مشايخ الصوفية التيجانية، وشعر التأملات الصوفية، وشعر التوسل والاستغاثة والغزل.
- يظهر من خلال معجمه الشعري، أنه يستخدم ألفاظا غامضة الدلالة، يستوحيها من شعر الخمريات، ومن شعر الغزل، ويوجهها إلى أغراض خاصة، لا يدرك الأكثرون دلالاتها، وهذه تعد إشكالية دلالية، كما هو الحال في الأدب الصوفي بشكل عام.
- أبرز سمة في أسلوبه هي سمة التكرار، وقد اتخذت أشكالاً تتنوع ما بين تكرار الكلمة، وتكرار الجملة، وتكرار صدر البيت بكامله، على نحو يبلغ اثنتي عشرة مرة في بعض القصائد.

وقد أوصت الدراسة إلى وزارة الثقافة التشادية بطباعة دواوين الشعراء التشاديين. وأطروحات الدكتوراه، ورسائل الماجستير التي تناولت اللغة العربية وآدابها، لا سيما ذات الطابع الإفريقي، لأنها تعد من أوّليات الدراسات في الأدب العربي الإفريقي جنوب الصحراء، وأنها ذخيرة فكرية هائلة يمكن أن تضاف إلى المنتوج المكتوب باللغة العربية.

الكلمات المفتاحية: علي آدم بحر، دراسة أسلوبية، شعر صوفي، شعر علي.

Abstract

The paper dealt with a study of the contents and styles in the poetry of Ali Adam Bahr - one of the contemporary Chadian poets - and examined the contents of his poetry and the stylistic characteristics that distinguished it. It shed light on the literary and intellectual value of those poems, and discussed the linguistic and stylistic errors he encountered, as a matter of constructive criticism .This study aims to codify Chadian Arabic poetry, introduce it, and improve it as much as possible .It also aims to clarify aspects of strength and weakness from a stylistic linguistic perspective .I discussed the poet's words and the extent to which he employed the rules of the Arabic language.

The study used an integrative approach, combining the descriptive and analytical approaches, and reached a number of results, including:

The most prominent topics addressed by the poet Ali Adam Bahr are: praise of the Prophet, praise of the sheikhs of the Tijdaniya Sufis, poetry of Sufi contemplations, and poetry of supplication and seeking help.

It appears through his poetic dictionary .He uses words of ambiguous meaning, inspired by the poetry of Al-Khamriyat (poetry of vinous) and the poetry of ghazal (erotic poetry), and directs them to specific purposes, the meanings of which most people do not realize. This is a semantic problem, as is the case in Sufi literature in general.

He showed a characteristic in his style, which is the characteristic of repetition, and it took forms that varied from repeating a word, repeating a sentence, and repeating the entire beginning of the verse, as many as twelve times in some poems.

The study submitted (to the Ministry of Culture) a recommendation to print collections of Chadian poets .It also recommended printing doctoral theses and master's theses that dealt with the Arabic language and its literature of an African character, because they are considered among the first studies in Arab-African literature.

Keywords: Ali Adam Bahr, stylistic study, Sufi poetry, Ali's poetry.

المقـدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد،

فهذا البحث محاولة سعت إلى إجراء دراسة في شعر علي آدم بحر، من ناحية مضامينه وخصائصه اللغوية والأسلوبية، مستقية المادة الأساسية من ديوان الشاعر، المسمى بديوان شعر علي آدم بحر، وعليه يمكننا أن نتبين مشكلة الدراسة وأهدافها ومنهجها فيما يأتي:

مشكلة الدراسة:

مشكلة هذه الدراسة هي السعي للإجابة عن تساؤلات حول الأفكار والمضامين التي حوتها قصائد علي آدم بحر، وعن الجودة والسلامة اللغوية فيها.

أهمية هذه الدراسة:

- تسجل الدراسة فكرةً عن إرثٍ ثقافي شعري نبت خارج إطار العالم العربي، ولكنه يمثل جزءا من الشعر العربي الذي لم يجد حظه من البحث والدراسة.
- تبرز أهمية هذه الدراسة فيما تضمنه شعر علي آدم بحر من معان وقيم، وفيما حوى من جماليات لغوية وأسلوبية.
- تسلط هذه الدراسة الضوء على الأخطاء اللغوية والأسلوبية في شعر علي آدم بحر، وتسعى إلى معالجات عن طريق الملاحظات النقدية.

أهداف الدراسة: إن الهدف من إجراء هذه الدراسة هو تحقيق ما يأتي:

- توثيق الأدب الإفريقي المكتوب باللغة العربية في القطر التشادي، وتدوين ما لم يجد حظه من النشر والذيوع، والتعريف به من خلال دراسة تاريخه ونقده.
- السعي إلى تجويد المنتوج الشعري، وتحفيز الشعراء بتوجيههم من خلال الدراسات النقدية.
- إيضاح جوانب القوة والضعف في شعر علي آدم بحر.

أسئلة الدراسة:

- ما مضامين شعر علي آدم بحر؟
- هل تحتوي قصائده علي آدم بحر على أفكار ومضامين تخدم قضايا الإنسانية؟
- ما مظاهر الجماليات اللغوية والأسلوبية في قصائده؟
- ما مدى فصاحة الألفاظ التي استخدمها؟ وهل توجد ألفاظ دخيلة أو أعجمية في شعره؟ وهل هنالك ملاحظات دلالية أو نحوية أو صرفية تؤخذ عليه؟

فرضيات الدراسة: هذه انطلقت الدراسة من عدة فرضيات تمثل إجابات متوقعة للأسئلة سابقة الذكر، منها:

- علي آدم بحر من شعراء الاتجاه الإسلامي الصوفي في تشاد، ولذلك كثر في شعره أغراض المديح النبوي، ومدح مشايخ الصوفية لا سيما مشايخ الطريقة التيجانية، وشعر التأملات الصوفية، والتوسل والاستغاثة.
- تناول الشاعر قضايا وطنية واجتماعية في قصائده تدعو إلى الوحدة والتعايش، ورؤى فلسفية وفكرية، يمكن توظيفها في تحقيق السلام. ولذلك يُعد شعره وثيقة تعبر عن فكر فئة تشربت بالثقافة الإسلامية العربية، ولكنها عاشت في غير موطنها، وكان لها صداها المغاير لما هو سائد في المجتمع الإفريقي.
- تتمتع قصائد علي آدم بحر بالسلامة اللغوية الفائقة رغم وجود بعض الألفاظ الأعجمية والدخيلة، ورغم الأخطاء اللغوية القليلة التي لا تقلل من القيمة الإبداعية في شعره.

حدود الدراسة:

أجريت هذه الدراسة في قصائد الشاعر علي آدم بحر الواردة في ديوانه غير منشور حتى اليوم (أكتوبر 2023) تاريخ إعداد هذه الدراسة.

الدراسات سابقة:

هنالك دراسات أجريت حول شعر الشيخ علي آدم بحر، منها:

1 ـ شعر علي آدم بحر دراسة فنية، أمين علي دهب، بحث قدم إلى قسم اللغة العربية بكلية الدراسات العليا بجامعة الملك فيصل، إكمالا لمتطلبات التخرج في دبلوم الدراسات المعمقة، 2005.

2 ـ الشعر الديني الصوفي في تشاد من 1900 إلى 1960، أحمد الرفاعي محمود، رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم اللغة العربية بكية الدراسات العليا بجامعة الملك فيصل، 2005.

وتختلف هذه الدراسة عن سابقتيها بأنها دراسة في المضامين والأساليب اللغوية، أما ما سبق فهما دراستان أدبيتان نقديتان.

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة منهجا تكامليا، يجمع بين عدد من المناهج والإجرائيات، تُوظَّف حسب مقتضى المقام.

هيكلة الدراسة:

جاءت الدراسة في مقدمة، وعرض في ثلاثة أقسام أساسية تفرعت منها مباحث، وخاتمة اشتملت على نتائج وتوصيات واقتراحات، ثم ذيلت بالمراجع، على النحو الآتي:

تناول القسم الأول الشاعر، من حيث نشأته وبيئته، وروافد شاعريته. ثم تناول القسم الثاني مضامين شعره، فعرض نماذج من شعر المديح النبوي، وما مدح به مشايخ الطريقة التيجانية، ثم نماذج من شعر التأملات الصوفية والتوسل والاستغاثة. أما القسم الثالث، فقد درسنا فيه المعجم الشعري، ثم تناولنا بالدراسة الأسلوب، ثم سجلنا بعض الملاحظات النقدية، والاستدراكات اللغوية التي شملت المستوى الصرفي والنحوي والمعجمي والدلالي والأسلوبي. وخُتم البحث بالنتائج والتوصيات.

الـعـرض والـمـنـاقـشـة

1. نشأة الشاعر وعوامل تكوين شاعريته:

1.1. التعريف بالشاعر:

هو علي آدم بحر الدليل أبو شمّو، تشادي الأصل والنشأة، ينتمي إلى قبيلة بني هَلْبة. وبنو هلبة قبيلة عربية، استقرت في مملكة وَدَّايْ بشرق تشاد منذ تاريخ بعيد، وهي تعد من القبائل المصاحبة للوَدَّايْ[1] قِدَما في هذه المنطقة.

ولد الشاعر سنة 1948 بمدينة أبشة التي نشأ فيها، ونال تعليمه بحلقاتها، وإبَّان الحرب الأهلية في تشاد انتقل إلى مدينة (مايدغري) بولاية برنو شمال دولة نيجيريا سنة 1980، وظل فيها حتى تاريخ عودته إلى الوطن سنة 1990. أما أسرته فلا تزال تقيم هناك.

1- 2 - تعليمه:

قرأ القرآن الكريم منذ حداثة سنه، ثم أُلحِق بالمدرسة الإقليمية الفرنسية، ثم بثانوية أبشة المزدوجة، وحصل فيها على الشهادة الثانوية سنة 1972، ثم التحق بمعهد المعلمين، وتخرج فيه سنة 1974، ثم سافر إلى السودان والتحق بمعهد بخت الرضا التربوي وتخرج فيه سنة 1988.

1 - 3 - آثاره العلمية:

للشيخ علي آدم بحر آثار أدبية، وعلمية يدور معظمها حول التصوف وعلومه، وقد ذكر بعضا منها للباحث أمين علي دهب، وهي:

أ. السمط الفاخر المكلل باليواقيت والجواهر لكل مُصَلٍّ ومسبح ذاكر.
ب. إشراقة الصباح في الصلاة على مصباح كل مصباح.
ت. الأريج المنبثق من الصلاة على طه البهيج.
ث. النفحات الليلية العارضة من الصلاة على خير البرية.

1 - 4 - عوامل تكوين شاعرية علي آدم بحر:

تضافرت مجموعة من المؤثرات الداخلية الذاتية، والخارجية البيئية، لتكون شخصية الشاعر، وصقلت موهبته الفطرية، منها:

أ. البيئة بمفهومها الواسع، أثرت أيما تأثير على تكوين شاعرنا علميا وثقافيا وروحيا، إذ إن النشأة في مملكة وداي الإسلامية التي كانت تعد قلعة من قلاع العلم في القرن العشرين بحلق علمها ومعاهدها، وبعلمائها الذين جابوا الأمصار فشرقوا نحو الحجاز والأزهر الشريف، وغربوا نحو الزيتونة والقيروان، وعادوا بحصيلة علمية وافرة، حتى غدت أبشة عاصمة المملكة محجا لطلاب العلم من كافة دول الجوار، كما يرجع الفضل إلى مهجره في مدينة مايدوغري إحدى حواضر مملكة البرنو الإسلامية في نيجيريا التي لم تقل شأوا عن ودَّايْ، إذْ كانت البيئتان بيئتي علم ودعوة، احتلت فيهما الطريقة التيجانية مكانة سامية، واعتُنِي فيهما بالمدائح النبوية أشد الاعتناء. حتى

(1). أقدم قبائل المنطقة، وتتحدث إلى جانب العربية لغة أخرى غير ها، ومنها سلاطين وداي وملوكها، وهي قبائل مسلمة اشتهرت بالتمسك بالدين وحفظ القرآن الكريم، وحب اللغة العربية. وتعرف بالبرقو في السودان.

أسهمت هذه الأجواء العلمية الروحية في تكوين شخصية شاعرنا، فضلا عن حفظه لكثير من الأشعار وتمثله إياها وترديده لها.

ب. أما التنشئة الأدبية فكانت نتاجا لرافدين أساسيين أسهما في صقل تجربته، وتهذيب موهبته الشعرية هما: القرآن الكريم الذي عُنِي الناس بحفظه ومدارسته في وداي وبرنو، والأشعار الصوفية التي يرددها الناس في المناسبات الدينية، وفي مجالس المآتم، وليالي الجمعة والاثنين بصورة راتبة. إذ إن القراءة الاستقصائية لديوانه بينت أن القرآن الكريم كان رافدا أساسيا في تكوينه الأدبي، ويبدو ذلك جليا في قاموسه الشعري، ومعانيه التي استقاها من القرآن الكريم، شأنه في ذلك شأن جميع شعراء الاتجاه الإسلامي.

أما الرافد الثاني فيتجلى في تأثره بالموروث الأدبي الصوفي، لا سيما تأثره بأساليب ومضامين في بلادي المشرق والمغرب الإسلاميين، ومن ذلك ما جاء في قصيدته (الصبابة)، إذ يقول[2]:

سهرت بنار الحب للحب منشدا ... فزادت صباباتي وجسمي تأكسدا
بأحمد المختار أشدو مغردا ... فمستور شوقي كالغزالة قد بدا
فحطت رحال العاشقين بطيبة ... ورحلي بقيد العسر بات مقيدا
بروضة الغناء ضاءت وجوههم ... ولبي بنار الحزن قد صار موقدا
فيا ليتني من بينهم كنت راكبا ... أجوب بلاداً فيها القصد أحمدا

هذه الأبيات الملتهبة بنار الشوق ولوعة الحرمان من زيارة الأراضي المقدسة، وما بعدها من أبيات مستوحاة من قصيدة الشيخ عبد الرحيم البرعي[3] التي أنشدها، متحسرا على عدم تمكنه من الرحيل إلى بيت الله، حيث سبقه الرفاق قاصدين حاجين، فيقول[4]:

يا راحلين إلى منىً بقيادي ... هيجتموا يوم الرحيل فؤادي
سرتم وسار دليلكم يا وحشتي ... الشوق أقلقني وصوت الحادي
أحرتموا جفني المنام ببعدكم ... يا ساكنين المنحنى والوادي
وإذا وصلتم سالمين فبلغوا ... مِنِّي السّلام إلى النبيّ الهَادِي
يا رب أنت وصلتهم وقطعتني ... فبحقهم يا رب حل قيادي
بالله يا زوار قبر محمد ... من كان منكم رائحاً أو غاد
قولوا له عبد الرحيم متيم ... ومفارق الأحباب والأولاد
صلى عليك الله يا علم الهُدى ... مَا سار ركْبٌ أو تَرنَّم حادي

فالتناص الإيحائي واضح بين النصين، ويظهر فيه التعبير عن الشوق إلى أرض الحرمين الشريفين، واللوعة من الحرمان عن زيارتهما، والحسرة على التخلف عن ركب الحجيج. كما أنه استعار ذات الألفاظ من البرعي، كالشوق، والرَّحْل، والقلب، والوصال، والعشق ... إلى غير ذلك.

ثمة رافد من روافد شعر المديح الذي تأثر به شاعرنا، هو ديوان بردة المديح للإمام البوصيري الذي شاع في ودَّاي، لا سيما قصيدته المسماة (بالمضرية في الصلاة على خير البرية)، كذلك قصيدته (مقصد الأمم) في مدح النبي ﷺ، التي نظمها على بحر البسيط مع قافية ميمية، على نمط البردة. وفي بعض من أبياتها يقول الشاعر:[5]:

---

[2]. بحر، علي آدم، ديوان شعر علي آدم بحر، ص 47 (غير منشور).

[3]. عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي (1368هـ -- 1427هـ)، شاعر وأديب يمني من العصر الرسولي، من سكان جبل برع أحد جبال تهامة، من آثاره: ديوان شعر أكثره في المدائح النبوية. ينظر :عبد الرحيم البرعي (شاعر)، الساعة 9:56، يوم 2023/10/17م، *Wikipedia.org*

[4]. البرعي، عبد الرحيم بن احمد، ديوان البرعي، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، 1972م، د ط، ص293-294.

[5]. الديوان /32.

يا من تفرد بالإحسان والكرم والجود والحلم والأخلاق والشيم
قد لا يدانيه فرد في سماحته إذ إنه علم والباقي كالعدم
قد قال مـــا قـال فيه كـــــل ذي كـــلم لم يعط حق خصـــــم مقصـــــد الأمم

وقد كانت هذه الأبيات معارضة لبردة البصيري الشهيرة، نظمها الشيخ علي آدم بحر بذات الوزن وذات القافية، مصرعا بيتها الأول كما فعل البصيري، في مستهل البردة التي يقول فيها[6]:

محمد أشرف الأعراب والعجم محمد خير من يمشي على قدم
محمد باسط المعروف جامعه محمد صاحب الإحسان والكرم
محمد تاج رسل الله قاطبة محمد طيب الأخلاق والشيم
محـــــمد ثابـــــت محـــمد صـــادق الأقـــــــوال الميـــــثاق حافظـــه والكـــــلم

ومن تأثيرات البردة على الشيخ علي آدم بحر قوله في القصيدة السابق ذكرها[7]:

محمد ماحياً أنواره سطعت على البرية بالخيرات والنعم
محمد رحمة العالمين به ينال كل مني من ورده العمم
محمد ماحياً بالحمد متصف من كفه انسحت الوطفاء بالديم
محمد شاكر والشكر شيمته أخلاقه وصفت في الآي بالعظم
محمد مرتضـــــى مـا أحـــلى سيـــــرته له المـــقال على الســـادات مـن قدم

ومن الروافد الشعرية التي أفاد منها شاعرنا أعمال الشيخ إبراهيم بن إنياس الكولخي[8]، في ديوانه (نزهة الأسماع والأفكار في مديح الأمين ومعاني المختار) المشهور بالدواوين الستة، وديوانه: (سلوة الشجون في مدح النبي المأمون). إذ نجد شاعرنا يسير على طريقته في المطالع والخواتيم، فيكرر الصلاة على النبي في صدر العديد من الأبيات وصل في بعضها إلى اثني عشر بيتاً. وخير ما يستشهد به ما ورد في قصيدته (الحب والهيام) حيث ختمها باثني عشر بيتاً، كرر فيها صدر البيت نفسه، ومن ذلك قوله [9]:

صلاتي على طه الحبيب المعظم صلاة تفيض النور في قبر آدم
صلاتي على طه الحبيب المعظم صلاة تضيء القلب من نور خاتم
صلاتي على طه الحبيب صلاة تنجي الشاد من كل المعـــظم ظـــــالم

وهو في هذه الأبيات متأثر بقصيدة الشيخ الكولخي، التي منها قوله[10]:

عليه صلاة الله ثم سلامه صلاة لنا كل المقامات تجلب
عليه صلاة الله ثم سلامه صلاة لنا بالمصطفى الجدب يخصب
عليه صـــلاة الله ثم سلامه صلاة مع الآل والأصحاب دهر تقـرب

ولعل شاعرنا قصد أن ينظم شعره على طريقة الشيخ الكولخي، الذي يقول مريدوه عن شعره: "كل بيت منها انطوى فيه من المعاني والعلوم الباطنة ما نقص به المجلدات، وحوى من البلاغة والمعاني الظاهرة الدرر اليتيمات، فيا لها من أوعية مشحونة أسراراً وبديعاً... ولم لا وهو الشيخ الذي تدلت من

6(). محمد البصيري: بردة المديح، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، 1972م، ص:35.
7(). المصدر السابق/57 (قسم ملحقات البردة).
8() . ولد في قرية طيبة بالقرب من مدينة كولخ بالسنغال عام 1318ه/1900م وتوفي في العام 1395هـ/1975مـ، له مكانة علمية بارزة في العالم الإسلامي، وهو مكان حفاوة وتكريم لدى كل الدول الإسلامية التي زارها، له أشعار كثيرة جمعها في كتاب واحد أسماه الدواوين الستة، ثم صدر له ديوانان آخران. معظم أشعاره في المديح النبوبي، وفي مدح أهل الطريقة ولكن الطابع الصوفي هو الغالب على مدائحه. ينظر: الشيخ إبراهيم إنياس، الساعة 10:22، يوم 2023/10/17م، *Wikipedia.org*
9(). الديوان السابق/9.
10(). إبراهيم بن إنياس الكولخي: ديوان نزهة الأسماع والأفكار في مديح الأمين ومعاني المختار، مطبعة مي آدمو التيجانية، ط2، بدون تاريخ، ص:33.

أسفل أخمصه يواقيح المشيخة، ولد قطبا كاملاً ونشأ عالما عاملاً...."[11] وعلى هذا قصد أن ينحى في الشعر منحى صوفياً محضاً، ولعل هذه من خواص الشعر الصوفي الأفريقي.

كما أفاد الشاعر مما شاع في ديوان الشيخ الكولخي من ترتيب الحروف الأولى من الأبيات لتُكوّن كلمةً ذات دلالة، نحو (محمد رسول الله) أو (لا حول ولا قوة إلا بالله) أو أية كلمة أخرى. ونرى ذلك في قصيدته (وحي مستشفى ابن سينا)[12] التي تجتمع حروفها الأولى لتكون (محمد رسول الله)، والأمر ذاته ما نجده في قصيدة الكولخي (وداد الهاشمي). [13]

تلك نماذج من الروافد التي ساهمت في تكوين شاعرية علي آدم بحر، وقد تمثلت في الاقتباس من القرآن الكريم والاستنارة بمضامينه، مع الإفادة من ألفاظه الكريمة. كما كانت دواوين المديح النبوي رافداً أساسياً في صقل موهبته الشعرية، حيث استعان بها في اقتباس مضامين شعره ومعانيها، كما استفاد من هذه النماذج في تكوين عناصر موسيقاه من وزن وقافية وتصريع.

2. موضوعات شعر علي آدم بحر:

2 -1. شعر المديح النبوي:

استحدثت ظاهرة المدائح النبوية كموضوع من موضوعات المدح الذي يستلهم منه السيرة النبوية العطرة، ولذلك تأثرت به الطرق الصوفية، لا سيما في البيئة الصوفية الإفريقية التي منها تشاد. وقد أسهم في انتشار هذا النوع من الشعر إحياء الليالي يومي الخميس والاثنين من كل أسبوع وفي المناسبات الدينية والاجتماعية، مما أذكى روح المنافسة بين شعراء المديح الأفارقة، حتى صار شعر الرعيل الأول منهم معارضاتٍ أو تكراراً ومحاكاةً للمدائح التي وصلت إليهم من شعراء العصر المملوكي والعثماني، لكنهم صبغوه بصبغة الطريقة التيجانية. وهم يعتقدون أن ذلك هو السبيل الحقيقي إلى أسباب السعادة [14]. وهذا الاتجاه هو الذي نجده عند علي آدم بحر، إذ يمدح المصطفى – صلى الله عليه وسلم – من منطلق التصوف، كما نلمس ذلك في قوله[15]:

بحب رسول الله أشدو وأطرب ... وفيما سواه لا أبالي وأرغب
فحب رسول الله أزكى وأطيب ... فحب رسول الله أحلى وأطيب
فحب رسول الله أشهى وأطوع ... فحب رسول الله أمرى وأخصب
فحبي له حب تليد متيم ... كنقش على الأحجار أقوى وأصلب
مدى الشوق عندي لا يقاس ويعرب ... كنبض له الأسى يجيش ويكتب
فحب رسول الله قد بان غوره ... لكل أساة الأرض يضني ويتعب
فطاه حبيب الله حِب معظَّم ... كلفت به حباً ولا فيه أذنب
فحب رسول الله ... هو المصطفى المحبوب للنفس مطلب
حب مطهر

فإذا تجاوزنا ما في هذه الأبيات من إيقاعات موسيقية، نجده يسوق قصيدته على أسلوب التأكيد بالتكرار، حتى وردت كلمة (حب) ثلاث عشرة مرة، في هذه الأبيات الثمانية، وفيها دلالة على تلذذه بحبه للمصطفى ﷺ.

ويلاحظ في هذا أن التجربة قد تميزت بالصدق الفني وقوة العاطفة، اللتين تولد عنهما تراسل الحواس، في مثل قوله: (أزكى وأطيب – وأحلى وأطيب) فهو يشم الحب مرة فيجده زكيا عطرا يشده بطيبه فينجذب إليه، ثم يتذوقه بلسانه مرة فيجده عسلا طيبا، فيستزيد منه، كما نجد في القصيدة أسلوبا بيانيا يشمل صورا عدة، ومن ذلك تشبيهه لأزلية حبه وقدمه، بالنقوش والآثار على الأحجار، فإنها تبقى آلاف السنين ولا يمحوها كر الجديدين، وكذلك تشبيهه لقوة الحب وشدة الشوق واضطرابه بضربات القلب

11(). المرجع السابق/3.
12(). علي آدم بحر: الديوان /13.
13(). إبراهيم بن إنياس الكولخي: المرجع السابق/86-87.
14() محمد كامل التقي: أدب العصر المملوكي، النهضة المصرية العامة للكاتب، القاهرة، 1976م، ص:97. (بتصرف).
15() علي آدم بحر: (الغرض من المديح) مقابلة أجراها أمين علي دهب، عصر الاثنين 2005/02/13م، بمنزله، أنجمينا شارع أربعين.

ونبض العرق، ولا تخفى الكناية المكنية في قوله: "حب رسول الله ﷺ أمرى وأخصب" إذ شبه هذا الحب بطعام شهي هنيٍّ، وبأرض خصبة تؤتي محاصيل وغلالا وفيرة، ولكنه لم يذكر لنا هذين المشبهين بل رمز إليهما على التوالي بما يلائمهما وهما (أمرى) و(أخصب)، وغير ذلك من الصور الكثيرة في أشعاره.

2.2. مدح مشايخ الطريقة التيجانية:

مدح الشاعر علي آدم بحر العديد من مشايخ الطريقة التيجانية، كالشيخ أحمد أبي الفتح[16]، والشيخ إبراهيم صالح[17] والشيخ التيجاني البرناوي[18]. ومن ذلك قوله في مدح الشيخ أبو الفتح[19].

ذي[20] طلعة بجمال الحق تأتلق عين المعارف منها وهي تندفق
عين تفيض فيوضا عنها غدق تروي لكل غليل كأسها دهق
كأساً يدار بناد العارفين وقد طاب الشراب لهم إذ أنهم صدقوا
صـدقا أكيدا عليـــه دام بحر الحقائق فيه أنـهم غرقوا عهــدهم

ومن مدحه ما جاء في وصف الشيخ التيجاني البرناوي، الذي وصفه بالمربي الفاضل، العالم الذي فاض علمه حتى نال جموعًا من الناس حظهم من فيوضه، إذ يقول[21]:

هو البدر والنور الذي عم نفعه به شادت الأقطار من خيـــره
صـفي تـقي أريحي فاضل الهاني
هو الـبحر يأتيه المريدون دائما جـميل الـمحيا عال الذكر والشأن
به فـاض فيض الفيض مباركا جموع وأفراد بشيب وشـبان
به نرتقي والقـلب بالنـــور مفعم وعم بلادا مع صحاري ووديان
فنعم المربي صاقل القلـــب من ران

ومدح الشيخ إبراهيم صالح الحسيني، شيخ الطريقة التيجانية بدولة نيجيريا بقوله[22]:

إن بـرهام سيد وإمام جاهـد دائما بحق ينادي
إنه منهل لعـذب ثجاج يثمر القلب ماحيًا للسواد
ورده صافيا هنيئا مرينا هل فيه حواضر والبوادي
فاضل عامل وللعلم بحر ضاء نور له ولله هـادي
حاويا للعلوم ما شئت فيـ ـــه قل شريف به يتم مرادي
طيب الخلق زهدا مستقيما عاقل صابر لبث الرشاد
ساهـر سائر بعـزم وحزم حامـد شاكر لرب العباد
ليـــن الجنب للبـــرايا منه يبـــدو ولها وئام الوداد

---

[16]. الشيخ أحمد أبو الفتح محمد سعد اليرواوي، من شيوخ الطريقة التيجانية في نيجيريا، ولد ببقرية تسمى سنديا تقع جنوب مدينة مايدوغري عاصمة ولاية برنو بشمال نيجيريا، بنحو 78 كيلومترا، تتلمذ على كبار شيوخ الصوفية في القطر النيجيري، وأجيز في معظم العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، كان كثير التردد على مدينة فاس حيث يوجد ضريح الشيخ احمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية، كما كان يقيم كثيرا في مدينة كولخ لزيارة الشيخ إبراهيم إنياس في حياته وبعد مماته، له العديد من المؤلفات العلمية والأدبية في التصوف، توفي عام 1424هـ/2003م. ينظر: نبذة عن حياة الشيخ أحمد أبو الفتح اليرواري الحسني، الساعة 11:00، يوم 2023/10/17م، محبي الشيخ محمد أبو الأنوار جرمة، *facbook.com*.

[17]. الشيخ إبراهيم صالح بن يونس بن محمد بن يونس بن إبراهيم الحسيني، ولد سنة 1938م في قرية عردية بولاية برنو – نيجيريا، لعب دورا كبيرا في مجال الدعوة والتدريس والتأليف العلمي والأدبي، زار كثيرا من البلاد الإسلامية، وشارك في كثير من الندوات والمؤتمرات العالمية والمحلية، ونال كثيرا من الأوسمة والشهادات التقديرية، كلفته الدولة النيجيرية بالعديد من المهام الرسمية والشعبية، وهو الآن رئيس الطريقة التيجانية بدولة نيجيريا. ينظر: إبراهيم صالح الحسيني، الساعة 11:10، يوم 2023/10/17م، *Wikipedia.org*

[18] من تلامذة الشيخ أحمد أبو الفتح.

[19]. الديوان /43.

[20]. كان الأولى أن يقول (ذو) بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو ذو طلعة.

[21]. الديوان/47.

[22]. الديوان/43.

ففي هذه الأبيات – إذا صرفنا النظر عما تخللها من استدراكات صرفية ونحوية وعروضية – نلمس مدحا يوافق مقامات أهل العلم والزهاد، إضافة إلى ما فيها من صبغة تيجانية واضحة، وهذا ديدن شاعرنا في مدح مشايخه التيجانيين، لأنه يمدحهم من منطلق الطريقة الصوفية التي تجمعه وإياهم.

3.2 ـ شعر التأملات الصوفية:

انتشرت في إفريقيا طرق صوفية كثيرة، اشتهرت منها ـ في جميع أرجاء تشاد ـ الطريقة التيجانية، بل في غرب إفريقيا قاطبة، كما انتشرت طرق أخرى كالفيضة الجارية، والجنيدية، والسنوسية والمهدية في شرق تشاد وشمالها، إلا أن التيجانية أسبقها انتشارا، وأكثرها أتباعا ومريدين، ليس في تشاد فحسب بل في ديار غرب إفريقيا قاطبة.

وقد برز من بين المشايخ التيجانيين في القطر التشادي شعراء قرضوا الشعر الديني، ودبجوا القصائد الطوال المتأثرة بفلسفة الطريقة، إبتداء من محبة الرسول ﷺ، والدعوة إلى تزكية النفس وإصلاحها، والتوسل بالرسول وبالشيوخ. نذكر منهم الشيخ يعقوب أبا كويسة، والشيخ أحمد الحبو، والشيخ الطاهر التلبي، وغيرهم. ثم جاء من بعدهم آخرون اتّسمت أشعارهم بالوجدان الصوفي المعتدل[23]، من بينهم الشاعر عباس محمد عبد الواحد – في بعض قصائده – والشيخ أحمد البرعي، والشيخ عيسى محمد كاوا، والشيخ إبراهيم دوتم عبد الرحمن، ومحمد جرمة خاطر في شعره الصوفي التأملي، ومن بينهم شاعرنا علي آدم بحر. ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى ما في تلك الأشعار من المبالغة والغلو أحيانا، وهذه سمة تلازم الشعر الصوفي معظمه.

ويتسم جل شعر علي آدم بحر بالمضامين ذات الطابع الصوفي، ويبدو ذلك جليا في قصائد ديوانه الذي بين أيدينا، باستثناء قصيدة واحدة في الغزل، أما معجمه فقد كثرت فيه المصطلحات الصوفية، والألفاظ التي كثر استعمالها في الأدب الصوفي، ويتضح هذا الأمر في جميع الأغراض التي طرقها.

وللشاعر علي آدم بحر أشعار صوفية خالصة، يحتاج فهمها إلى فهم حقيقة التصوف أولاً، لأنها لا تخاطب المتلقي مباشرة، بل تنفذ إلى ما وراء المعاني وتحتاج في فهمها إلى التأويل، ومن ذلك قصيدته (شربة من كأس). ودلالة الخمر والكأس عند الصوفيين تختلف عن مضمونها المشاع بين الناس، إذ يتلذذ بها شاربوها، ويستمتع بلونها البهي، ونكهتها، أما أوانيها فقد جلَّت عن كل وصف، ولا ترتشف هذه الخمر إلا في نادي أهل الصدق، حيث تأتيهم كؤوسها مدهقة من الحضرة العظمى[24]، وإذا ما شربها شارب، عالجت أمراضه النفسية والقلبية، فانكشفت له الحجب والأستار، ومن ذلك قوله[25]:

شربت كؤوسا من خمور تختلف ... عن الخمور لذة تستشف
فلونها به البهاء يتصف ... تفوق مسكا نكهة للمغترف
فعل شربي عنها إنني لم أقف ... راوُوقُها[27] قد جلَّ عن كل الوصف
فخمرتي بها القلوب تستشف ... لتشهد الحق وفيه تعتكف
تعالج النفس مع القلب الدنف[26] ... من الطخا[28] وكل فعل منحرف
فخمرتي يشربها شرابها ... في ناد صدق ظلة باق ورف
فخمرتي يشربها شرابها ... شرابها روحي فاق كل صرف
في الحضرة العظمى كؤوس تملأ ... بها علينا كل شيء ينكشف
صل إلهي دائما على النبي ... وآله أولي الصـــفاء والكشـف

---

[23] د/ محمد فوزي مصطفى: الاتجاه الإسلامي في الشعر التشادي، العالمية للطباعة والنشر، ط1، المنصورة، 2003م، ص:42.

[24]. الحضرة مصطلح إسلامي صوفي، يطلق على مجالس الذكر الجماعية برئاسة شيخ عارف بالطريقة، وسميت بذلك لأنها سبب لحضور القلب مع الله. ينظر: حضرة: الساعة 1:25، يوم 2023/10/17م، *Wikipedia.org*

[25]. الديوان/1.

[26]. الدنف: المرض اللازم، ورجل دنف، مدنف أي يراه المرضى حتى أشرف على الموت، المصدر السابق، مادة (دنف).

[27]. الراووق: الإناء الذي تصفى فيه الخمر، كالنجود، والباطنة، والجفنة، لسان العرب مادة (روق).

[28]. الطخا: أصله الطخاء، فحذفت الهمزة للضرورة الشعرية، وهو غشاء وظلمة وغيم، وفي الحديث (إذا وجد أحدكم طخاءً في قلبه فليأكل السفرجل).

يلمس قارئ هذه الأبيات – بوضوح – معاني غامضة وأسلوب معقد، ولا يكون ذلك الشراب إلا ما وصفوه في قولهم "إن لله شراباً لأوليائه إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا وطابوا، وإذا طابوا ذابوا وأخلصوا ووصلوا، واتصلوا ولا فرق بينهم وبين حبيبهم"[29].

ومن القصائد ذات الألفاظ الغامضة الدلالة في ديوان شاعرنا (قصيدة كؤوس الخمر)، وهي قصيدة جاءت على شاكلة سابقتها، وفيها كل ما في القصيدة الأولى من كؤوس، وخمر وشاربين، ثم تزيد بأن فيها أسرار وأنوار، وفيها ما يعز على ليلى أن تعصر مثلها لأنها مختومة بختم العناية الإلهية، وهي تعصر في أواني من عند رب البرية، وتشرب هذه الخمرة في دجى الليل، مصحوبة بالطبول التي تقرع، وبالأناشيد التي تردد، وهذا ما نسمعه في قوله[30]:

شربت كؤوس الخمر ما أحلى خمرتي ... فيا صاح لا تعجب لحالة سكرتي
كرعت[31] كؤوساً إذ براج تناوبت ... بها النور والأسرار ترياق[32] علتي
تلمظتها والمسك يعلوا عبابها ... فنعم الشراب المصفى عند حضرتي
فذي حضرة فاز الرجال براحها ... وسادوا ملوك الأرض عزا برفعة
ضربت طبولي في دجى الليل منشدا ... وإني بشرب الراح ضاءت مهيجتي
يعز على ليلى لتعصر مثله ... فذا الراح لا تعصر ليلى بكفتي
صبوح بها ختم بختم عناية ... فراووقها من عند رب البرية
وإني لرب الناس أدعوه صادقا ... وأرجوه مدا من فيوضات فيضة
لأحمد التيجاني شيخي وقدوتي ... بخاتم رسل الله تمت وسيلتي
صلاتـــي على المختار طه محـمد ... وآلٍ وأصحـــابٍ مصـابيـــحَ ندوتِـي

تعد هذه القصيدة من الأشعار التي تصور الأحوال النفسية للشاعر، لحظات الذكر، التي تعرف عندهم بلحظات الاتصال بالله والانقطاع عن العالم المادي.

وعليه، فإن الخمر هي رمز للأوراد والأذكار، والسكر هو حال انجذاب القلب إلى حب الله وحب رسوله ﷺ، وفقدان الإحساس بالعالم الخارجي، إذ تدور مجمل معاني هذه القصيدة في جو نفسي واحد و"في شعور واحد هو الشعور بالمحبة الربانية والسباحة في بحار الوجدان وأمواجها، يغرف فيها الشاعر من مياه لا تنفد، ولا يغرف من السطح بل يمد بصره إلى القاع ويغوص ويغرف من الأعماق النفيسة، مما جعل الضباب ينتشر ويعم الغموض، فنقرأ فنحتار أمام ما يشير إليه من معاني وأسرار"[33]، وهذا يفسر سر هذا الغموض.

ولشاعرنا مقطوعة أخرى في شعر التصوف، يصف فيها الحضرة الصوفية، ويرمز لها بسعاد، التي يرسم لها غصناً ميالاً، ووجهاً ينبثق منه النور، وجسماً تفوح منه روائح العود الذكية، ولها عيون لحظها كأنه سهم يشق الفؤاد، وتحمل في كفها قطن البطيحة[34]، وتمشي مشية تغير منها ظباء الوادي. تلك هي الحضرة الصوفية[35]، وقد شبهها وكأنها فتاة حسناء، ورد ذلك في قوله[36]:

سعد السعود فقد بدا بسعاد ... والقلب مال لغصنها الميادِ
وبوجهها نور الأقاحي قد علا ... من جسمها فاح الكبا[37] بسداد
وبكفها سدل الظلام رداءه ... وبلحظها سهم يشق فؤادي
تسبي الظباء بمشيها في الوادي

---

[29]. محمد الأمين عمر: الشيخ أبو بكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان، ص250.

[30]. الديوان/43.

[31] كرع الماء يكرعه كروعا، أي تناوله بفيه من موضعه، من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء، كرعت المرأة كرعا: أي اغتلمت وأحبت الجماع، لسان العرب مادة (كرع) والمعنى الأخير أقرب إلى مقصود الشاعر، على أن يكون المعنى أحببت كؤوساً

[32] الترياق: ريق الحيات، لسان العرب ماد (ريق) ويستخدم لإفساد السم في الجسم.

[33] د/ شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر /214.

[34] البطيحة نهير صغير يجري جنوب أبشة عاصمة وداي في أرض ذات خصوبة عالية سميت على اسمه، وقطنها من أجود أنواع الأقطان.

[35] يقول الشاعر: سعادرمز للحضرة. مقابلة بتاريخ 7/مارس/2005م بمنزله، عصراً، مرجع سابق.

[36] مخطوط، خارج الديوان، حصل عليه الباحث من الشاعر، في مقابلة بتاريخ 7/مارس/2005م، بمنزله، عصرا، مرجع سابق.

[37] الريح الطيب.

وبكفها قطن البطيحة شارقا حســن المحــاسن كــله
الله يخــلق مــا يشــاء بعلــمه بســـــعاد

وتتميز هذه المقطوعة بشيء من الوضوح أكثر من سابقتها، ولكنه وضوح لا يَبين إلا بمعرفة بواعث الشاعر، وذلك "لأن التغني بالحب الإلهي في الشعر الصوفي فرع من فروع الغزل والنسيب، لا يختلف عن الغزل العادي في المعاني والألفاظ، ولكنه يختلف في التأويل والتفسير"[38] ومن هذا المنطلق كانت سعاد رمزاً للحضرة الصوفية.

وخلاصة ما يمكن قوله عن شعر علي آدم بحر: أنه شعر صوفي يعتمد بناؤه التعبيري على الرمز، ويستقيه من الخمر، ومن الغزل. فالخمر تحمل دلالات كثيرة، فهي السكر بحب الإله والفناء فيه _ وأي سكر _ وهي العبق واللون والنكهة والإشعاع، وما إلى ذلك مما يعبر عن الصفاء الروحي والسمو الأخلاقي،[39]. ويقتبس لهذه المعاني أسماء المعشوقات كليلى وسعاد، ثم يعمد إلى وصف بعض الصفات الحسية كالنظرات والغصن الذي هو المتن والقوام، وهذا ليس جديدا، بل شاع في شعر المديح العربي في كل العصور.

2 - 4 - شعر التوسل[40] والاستغاثة[41]:

من فنون الشعر الصوفي: الاستغاثة والتوسل "وهو من موضوعات الدعاء، لذلك كثر هذا الضرب في الشعر الصوفي.

ومن التوسل في شعر علي آدم بحر، ما جاء في قصيدته (وحي مستشفى ابن سينا)، التي يعتقد أنها كانت سبباً في شفائه من المرض، كما كانت البردة سبباً في شفاء البصيري من مرضه، حيث يروي الشاعر أنه نظمها متوسلاً بها إلى رسول الله ﷺ، ليبرأ من سقمه، فجعل الحروف الأول من أبياتها هي حروف (محمد رسول الله) ﷺ، ثم وضعها تحت خده الأيمن ونام، فلم يستيقظ إلا وقد شفى من مرضه الذي ألزمه فراش المستشفى زمنا طويلا، ومنها قوله[42]:

م- مرامي لقاء الهاشمي محمد نبي الهدي المختار ياسين سيدي
ح- حنيني إليه لا يقاس حدوده وجسمي مريض بالتهاب مصعد
م- مضيت بمستشفى ابن سينا لياليا وجسمي به لفح على الجمر مرقدي
م- مصابي عظيم حير الآسي[43] حاله وجرحى حي أليم يا محمد خذ بيدي
د- دواما أصلي ثم أزجي تحيتي تقبل صلاتي مع سلامي المردد
ر- رؤوف رحيم بالبرايا جميعها حكيم وآس للمريض المقيد
س- سريت بروحي طه حِبي وإنني مريض بسرت[44] والعيادة مقعدي
و- ولي فيك صب ثم شوق ولوعة فسعر الهوى عندي شديد التمدد
ل- لغيرك ليست حوائج عندهم عليك اعتمادي يا غياثي ومنجدي
ا- إليك رفعت الأمر أرجو تفضلا شفاء سريعاً من مصابي المعقد
ل- لقد فاز من ناداك سراً وجهرة كأن الذي يرجوه في قبضة اليد
ل- لآلك والصحب الكرام تحية فإني لها أزجي بشوقي مؤكد
ه- هو الله ربي والنبي وسيلتي فحسبي به من كل شـــر لمقتدي

يبدوا في هذه القصيدة غلو صوفي كبير، إلا أن المقام هنا ليس مقام حديث عن تلك القضايا البعيدة عن الدراسات اللغوية.

---

[38]. محمد الأمين عمر: المرجع السابق/219.
[39]. إسحاق محمد علي: (إشكالية الشعر الصوفي جدل الظاهر والباطن) مجلة فضاءات للفكر والثقافة والنقد، دورية، المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس العدد 10/نوفمبر/2003م، ص:43.
[40]. التوسل: اتخاذ وسيلة ليتقرب بها المرء إلى الغير، وعند الصوفية اتخاذ الذكر والدعاء وسيلة للتقرب إلى الله تعالى.
[41]. الاستغاثة: هي الدعاء بتلهف طلبا للغوث من نازلة ألمت بالمستغيث.
[42]. الديوان ص 37.
[43]. محمد الأمين عمر: المرجع السابق/226، نقلا عن: د/ عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي/179.
[44]. سرت: الليبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

وللشاعر علي آدم بحر مخمسات يتوسل فيها برسول الله – صلى الله عليه وسلم منها، مخمسته في (الاستغاثة) بالشيخ محمد البكري الصديقي[45]، والتي يقول فيها[46]:

يا رسول الله غوثاً ومداً يا رسول الله فتحاً واهتدا
يا رسول الله نصراً سرمداً يا رسول الله ستراً مـن عدا

يا رسول الله أنت المعتمد

يا رسول الله في جاهك ما يكشف الغمة ثم النقما
بجبر الكسر ويـبرئ السقما يا جـوادك البحـــر طــما

يبلغ القاصد أعلا ما قصد

يا رسول الله هل تسمعني تسمع السرو حقاً إنني
جدلي يوصلك بالمعارف وبنورك الأبـــهى دومـــاً
خصـــني حفني

إي وربي تسمع القول وقد

يا رسول قوم أودي طهر القلب ونور خلدي
من فيضك المدار أجـــزل مددي وارأب النقص وخذ بيدي

فلكم قوّمت في الدين من أود

وعلى هذا النهج يسير في مخمساته التي تبلغ ما يربو على الثلاثين مخمسة، وجلها مليئ بالاستغاثات، والتوسلات.

وجملة القول إن في شعر علي آدم بحر أشعاراً يتوسل فيها برسول ﷺ، ولكن فيها بعض التجاوزات العقدية، وكان الأولى به أن يراعي تلك الصفات التي يختص بها الله وحده. وقد سادت هذه الخاصية شعره الذي يتوسل به جميعه، حتى كاد أن يعم في جميع الأغراض.

3 ـ الألفاظ والأسلوب في قصائد علي آدم بحر:

3 -1ـ معجمه الشعري:

كل عمل فني قولي يعتمد بالأساس على المعجم اللغوي، كدعامة مهمة من دعائمه التي يُبتنى عليها، إذ إن مناط الدقة في التعبير عن المعاني، ومدى ملاءمتها للمقام ولمقتضى الحال، يعتمد بالدرجة الأولى على اتساع المعجم، ودقة استعمال ألفاظه، حتى يتمكن الأديب من تطويع المعاني والتعبير عن خلجات النفس ومكنوناتها بسهولة ويسر، فيفجر الطاقة الإبداعية ويبرز أسلوبه بوضوح وجلاء، وهنا تبدو مكامن الجمال. "وإذا وُظِّف المعجم توظيفاً فنياً ينم عن شعور حقيقي، ويتفق مع المقام، ويشع منه عنصر الجمال، كان ذلك دليلاً على البراعة الفنية لدى الشاعر المبدع، وامتلاكه الحقيقي لناصية البيان"[47].

وبالدراسة الاستقصائية في ديوان شاعرنا، يتضح أن شاعرنا متأثر في معجمه الشعري بالدرجة الأولى بمصطلحات القاموس الصوفي، كما لوحظ تأثير القرآن الكريم عليه والسيرة النبوية المطهرة، ولما كانت معظم أغراض شعره تدور حول المديح النبوي والشعر الصوفي، فيمكننا تتبع معجمه من خلال هذه المضامين:

---

[45]. من علماء منطقة باغرمي الذين عاشوا قبل فترة الشيخ محمد الوالي بن سليمان الباغرمي.

[46]. الديوان/50.

[47]. د/ محمد فوزي مصطفى: فن المديح النبوي في الشعر التشادي رؤية تحليلية فنية، بحث مقدم إلى ندوة عالمية الأدب الإسلامي، جامعة الملك فيصل بتشاد، 5-8 أكتوبر 2002م، غير منشور، ص:21.

3 -2 ـ معجم شعر المديح:

يستمد الشاعر معجمه في المديح النبوي، من الآيات القرآنية، والسيرة النبوية، حيث يستلهم الآيات التي مدح الله بها نبيه ﷺ، ثم يقتبس منها بعض الألفاظ، فيثري بها شعره، مثال على ذلك قوله في مدح الرسول ﷺ:

رؤوف رحيم بالبرايا فأشدو مع الأحباب إنك أرصد جميعـــها

وقد كرر صدر هذا البيت في قصائد عدة، منها قوله:

رؤوف رحيم بالبرايا جميعها سخي كريم جامع للمكارم

الألفاظ: رؤوف، رحيم، ألفاظ قرآنية اقتبسها الشاعر من قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾(48). وأما قوله: (بالبرايا جميعها) فقد استعان فيه بقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(49)، لأن الرحمة هنا لعامة الخلق، أما في الآية السابقة، فهي للمؤمنين . ومما أقتبس فيه الشاعر ألفاظه من القرآن الكريم، قوله:

محمد عبد الله نور البصـــائر وبدر الهدى الماحي لكل الدياجر

شفيع البرايا يوم هـول وشدة وساق جمـوع الخلق باد وحاضر

فالألفاظ: البصائر، الهدى، الخلق، كلها مقتبسة من القرآن الكريم. ومما أثرى به معجمة من ألفاظ القرآن الكريم، قوله:

صل وسلم أيا رحمان يا وتر إن الصلاة عليه كلها ذخر

فتح وعلم بها والنور والنضـــر صلى الإله وأملاك بـــها الأمـــر

على نبي الهدى هادي الورى أحمد

فهذه الألفاظ مأخوذة من قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ (50)، زد عليها لفظ رحمان ووتر والنور وفتح والإله، والهدى والهادي والورى كلها ألفاظ يزخر بها المعجم القرآني، وهذه النماذج تدل على أن شاعرنا، قد استعمل في أشعاره ألفاظاً توحي بحسه الديني، وتعكس قيمه الاعتقادية، كما تعكس دلالات، وأبعاد روحية منبعها القرآن الكريم.

3 - 3 ـ المعجم الصوفي:

الألفاظ التي تنضوي تحت هذا المعجم هي الأكثر استعمالاً عند علي آدم بحر، إذ نجد في معجمه عبارات وجمل ذات إشعاعات صوفية خالصة، مثل: كأس، وخمور، وصحو، وسكر وغرف، ولذة، والمسك، وتشهد والحق، والفيض، والنور وطخاء النفس، وبرق يخترق الحجب ...، نجد هذه العبارات والجمل مبثوثة في ثنايا أبياته في كثير من قصائده ذات الصوفية.

ولا يتوقف المعجم الصوفي عنده في الشعر الصوفي فحسب، بل يتعداه إلى أغراض أخرى، كما في قصيدته (مرارة البين) وهي قصيدة أعدها في توديع الدكتور عبد الله حمدنا الله السوداني الجنسية، أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك فيصل وجامعة أنجمينا سابقاً، ومما جاء فيها:

ورده قد حوى لكل(51) تقيس موجة الخير ماؤها فيه در

وشفاه الطلاب ذاقت ثمارا في امتصاص الرحيق صحو وسكر

غرف القـارنون عذبا مـرينا إنه للقلـــــــوب نـــــور وذخـــــــر

---

48). الآية 128 من سورة التوبة.

49). من الآية 107 من سورة الأنبياء.

50). الآية 56 من سورة الأحزاب.

51). كان الأولي أن يقول (حوى كل) من غير اللام، لأن الفعل (حوى) متعد ولا يحتاج إلى حرف جر.

ويتضح مما سبق أن المعجم الشعري الذي يستند عليه شاعرنا معجم تغلب عليه الألفاظ الصوفية في كثير من القصائد والمقطوعات، كما أفاد من ألفاظ القرآن الكريم والسنة النبوية، وخاصة في شعر المديح، وأن معجمه مطاوع لغرضه في أغلب الأحيان، ومعظم ألفاظه عربية فصيحة، نجدها في المعاجم العربية، وكان لبيئة أبشة المهتمة بالعلم، المنشغلة بالأدب أثر كبير في تشكيل هذا المعجم.

ولم يقتصر معجمه على الألفاظ القرآنية فحسب، بل دخلته بعض الألفاظ الأعجمية من لغة الكانوري والعامية التشادية، والألفاظ اللاتينية من الفرنسية لغة قطره تشاد بجانب العربية، والإنجليزية لغة العالم الأكثر استعمالا، وهي دلالة على تعدد روافده الثقافية، فضلا تعدد اللغات التي كان يتحدثها.

3.4. الأسلـوب:

يتردد أسلوب شاعرنا ما بين العفوية والتكلف، وما بين الطبع والصنعة، ولعل مرد ذلك يعود إلى صميم التجربة، التي قد تكون صادقة قوية، وقد تكون متصنعة متكلفة، ويبدو أسلوبه القوي وشاعريته الحقيقة أكثر إشراقا وصفاء في شعره الصوفي، ولكنه يختلف عن هذه الميزة الإيجابية في شعر المناسبات.

وأظهر سمة في أسلوب شاعرنا، هي سمة التكرار التي تأخذ أشكالاً متعددة، منها تكرار الكلمة وتكرار الجملة، أو تكرار صدر البيت بكامله. "والقاعدة الأولية في التكرار أن اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام، وإلا كان لفظية متكلفة لا سبيل إلى قبولها، كما أنه لابد أن يخضع لما يخضع له الشعر عموماً من قواعد ذوقية وجمالية وبيانية ... ولعل أبسط التكرار، تكرار كلمة واحدة في أول كل بيت من مجموعة أبيات متتالية"[52]، ونجد تكرار الكلمة في أول البيت في كثير من قصائده في المديح، ولعل هذا التكرار يقصد به الاستعذاب والتشوق، وتقرير مراده في نفس السامع ليتفاعل معه، ويعيش النشوة التي يتلذذ بها الشاعر.

ورُصد لشاعرنا تكراره صدر البيت على نحو يصل إلى اثنتي عشر مرة في بعض قصائده، كما في قصيدة (أصل العوالم)، حيث كرر فيها صدر البيت: (صلاتي على طه الحبيب المعظم) اثنتي عشر مرة[53].

"وإذا كان للتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها"[54]، فإن كثرة التكرار بأشكاله المختلفة تلاحظ في شعر علي آدم بحر. وإن كان له ما يبرره من منظور التصوف، على أن تكرار الصلاة على النبي ﷺ مطلب من مطالب الذكر ابتغاء لكثرة الثواب، إلا أنه لا يستقيم مع الأسس الفنية والجمالية للشعر، إذ إن الشعر يحسن بابتكار المعاني والتشويق الاقتصاد في اللفظ، وبهذا يعد التكرار عيبا ومنقصة لشعره.

4 ـ استدراكات لغوية في شعر علي بحر:

هناك استدراكات لغوية نقف عندها في الديوان، منها ملاحظات دلالية، وأخرى نحوية وبعضها صرفية، وقد يكون مرد ذلك راجع إلى تفشي العجمة في المجتمعات التي عاش فيها كمجتمع وداي، ومجتمع أنجمينا ومجتمع برنو، أو بسبب الأخطاء اللغوية الشائعة في مجتمع تشاد، كما تشيع في كثير من الأقطار العربية الصرفة.

4.1. ملاحظات دلالية:

كثر استخدام الشاعر لألفاظ عامية أو أعجمية بدلا عن الفصحى، وهذا مما يؤدي إلى التعمية والغموض، لا سيما للذين لا يعرفون العامية التشادية، مما يوقع في أخطاء دلالية تقلل من قيمة شعره، ومن ذلك قوله[55]:

إن العداة شنوا غارة عددا يا رب فاسقهم كأس الردى أبدا
لا تتركن منهم بنـتا ولا ولدا وكل من مشى في الأرض أو قعدا
فشتت جمعهم يا قهار يا فرد

52() نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر دار العلم للملايين، ط8، بيروت، مار 1989م، ص:264.
53() ينظر، الديوان، ص:7.
54() ابن رشيق القيرواني: العمدة 383/2.
(55) الديوان/14.

ويلاحظ هنا أن الشاعر قد استعمل لفظ (بنت) مقابل (ولد)، فأورده على سبيل التضاد، وهذا مما يشيع استعماله في العامية التشادية والسودانية معا، والصواب أن الولد عام يشمل الأنثى والذكر، وكان الأولى به أن يقول: (لا تتركن منهم زوجا ولا ولدا) . والكلام ذاته يقال عن (مشى وقعد) فليس بينهما تضاد، وكلمة قعد في عامية تشاد تأتي بمعنى بقي واستقر، وليس بمعنى الانتقال من علو إلى استفال.

و من أنواع الخطأ الدلالي - أيضا- استعماله لفظة (شَرّ) قاصداً بها (بسط) في قوله[56]:

ولهم يَشُرُّ حصيره بحفاوة يرجو الجلــوس لشــرب أَحِلَّ شرابه

فقد استعمل لفظ (يشُرّ) قاصداً به يبسط[57]، وتأتي في العامية بمعنى ينشر، ومن ذلك قولهم: شَرَّ غسيله تحت الشمس ليجف، أي نشره. إلا أن هذا الاستعمال لا يوافق العرف اللغوي[58].

ومن الملاحظات الدلالية أيضاً استعماله لفظ (نقاب) مريدا به الصفات الخلقية الحسنة حيث قال الشاعر[59]:

والوجه يخــجل الغزال كمل الكلام بكامل لنقابه بشـــــاشة

ويتبادر إلى الذهن أنه يقصد بالنقاب معناه المعروف وهو القناع أو الحجاب، حتى وجدنا تعليقه في الهامش: " النقاب"، الصفات"[60]، ويا حبذا لو استعمل المعنى الحقيقي في هذا الموضع.

ومما يستدرك عليه أيضاً: إيراده لفظ (القدم) قاصداً به (الحافر)، وهذا مما ورد في قوله[61]:

بحر السخاء عماد العز من قِــدَمٍ كَرْدُوسُـــــهُم يَطَأُ الأَعْـــــداءَ بالقَدَمِ

فالكردوس هو الفرس- كما سبق بيانه- والذي يناسبه هو الحافر، وليس القدم، لأنه للإنسان، والحافر للخيل والبغال والحمير[62].

2.4. ملاحظات معجمية:

يلاحظ أن الشاعر قد لجأ إلى استعمال بعض الألفاظ الأعجمية في شعره، من ذلك : استخدامه كلمة (الكبسول) وهي كلمة لاتينية، تطلق على المغلف، ومنه تلك التي يغلف بها "نوع من المضادات الحيوية"[63]، وقد أوردها شاعرنا في مدح الشيخ أبي الفتح، فأخذ في تعداد مناقبه وفضائله، بقوله[64]:

هو الكنز والكبسول للخير جامـع هو الدرة العصماء للحق مظهر

ومن الألفاظ الأعجمية – أيضا- كلمة (فرن)، وهي كلمة لاتينية *furnus* وتعني مخبز أو التنور[65]. وقد أوردها الشاعر في قوله[66]:

إذا لم تمت حقا تمـوت ظنونه بفرن القلى يبقى له الموت ينظر

3.4. تنافر الحروف:

وينتج عن تقارب مخارج الحروف في الكلمة، وأسوأه هو الذي يكون بسبب حروف يندر تواليها كالقاف والخاء التي وردت في كلمة (نقاخ)[67] من قوله[68]:

---

(56). الديوان السابق/24.الهامش رقم 5.
(57). لسان العرب: مادة (شرر)
(58). الديوان لاسابق/24
(59). المصدر السابق، والموضع : الهامش رقم 7.
(60). لسان العرب مادة(نقب)
(61). الديوان /30
(62).. لسان العرب: مادة (حفر)
(63). د. دانيال رينغ: لاروس البيل الوسيط، (فرنسي عربي)، السربون، ط3،1983م مادة (كبسو)
(64). الديوان: ص48.
(65). د. دانيال رينغ:المصدر السابق، مادة
(66). الديوان:ص58
67(). النقاح هو ماء صاف خالص بارد عذب.

هذا ابن أحمد نجـــل صالح عذب نقاخ يبقى له المــوت ينظر أنه

ففي كلمة (نقاخ) من التنافر والثقل ما يخرجها عن الفصاحة.

4 -4- استدراكات نحوية:

ومنها تعدية ما حقه اللزوم وإلزام ما حقه التعدية. و استعمال اللام في غير محلها. ويبدو أن الشاعر متأثر في هذا باللهجة العامية التشادية، فأصبحت عادة لغوية عنده، انعكست على قاموسه الشعري، فلم يتمكن من التخلص منها. ومما خالف فيه القياس النحوي قوله[69]:

وكن مطمئن البال في كل حالة وابشر ولا تخشى ليوم الضواجر

فالفعل تخشى فعل، مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، فكان الأولى بالشاعر أن يقول (ولا تخش) بحذف حرف العلة، زد على ذلك ادخال اللام على الظرف (يوم) الذي وقع مفعولا به لتخشى.

4.5- استدراكات موسيقية:

وهي تتباين ما بين الأخطاء العروضية والعيوب في القافية. وقد كثرت الأخطاء العروضية في الديوان، منها: كسر أوزان بعض الأبيات، بإجراء زيادات أو نقصان في أعاريضها وأضربها، أو حتى في حشوها أحيانا.

الخلاصة:

أن في شعر على آدم بحر استدراكات عدة، تمثلت في الغلو الصوفي، وبعض الاستدراكات اللغوية والموسيقية، وهي في مجملها لا تحط من مكانة الشاعر ولا تنقص من القيمة الفنية لشعره، ولا تقلل من مقدرته والإبداعية في هذا المضمار. وبما أننا تصدينا لشعره بالدراسة والنقد، كان لزاماً علينا أن نضع أيدي القارئ بعض الملاحظات – قاصدين الحكم على هذا الإبداع وتقويم ما أعوج منه - عسى أن نقدم دليلا علميا يهتدي به في منتوجه القادم. وإذا تجاوزنا هذه الملاحظات فهو شعر جيد يمتاز بالجزالة والفصاحة واستقامة الأسلوب إلى حدٍ ما، مع خيال خصب أنتج صورًا بديعة، رغم التكرار الذي صار عرفا وتقليدا، وساد معظم قصائده.

خـاتـمـة الدراسة:

تناولت هذه الدراسة المضامين والأساليب في شعر علي آدم بحر، أحد الشعراء التشاديين المعاصرين، الذين يمثلون التيار الديني أحد تيارات الشعر التشادي المعاصر، وسلطت الضوء على الموضوعات التي نظم فيها شعره، وعلى الخصائص الأسلوبية له، ثم بينت القيمة الأدبية والفكرية لهذا المنتوج الشعري، حتى خلصت إلى النتائج الآتية:

1. نشأ الشاعر في بيئة تعنى بالعلم والأدب والثقافة، ويتخذ أهلها الطريقة التيجانية منهجا لهم، والمدائح النبوية وسيلة، إذ برع الناس فيحفظ دواوين شعراء العصر المملوكي والعثماني في المدح، وإنشاد قصائدهم، فتأثر بها شاعرنا، ونظم أكثر شعره على منوالها. ثم ازداد ولعه بالتصوف بعد رحيله إلى مدينة مايدوغري، مركز مشيخة الطريقة التيجانية في إفريقيا جنوب الصحراء، وحيث يقيم كبار شيوخ الصوفية، مما زاد شغفه بنظم شعر المديح.
2. أبرز الموضوعات التي تناولها في شعره هي: المديح النبوي، ومدح شيوخ الطرق الصوفية، لاسيما شيوخ الطريقة التيجانية، فضلا عن شعر التأملات الصوفية، وشعر التوسل والاستغاثة والغزل.
3. يظهر من خلال معجم شعره استخدام ألفاظ غامضة الدلالة يكثر إيرادها في الشعر الصوفي، ويلجأ الصوفية إلى تأويلها بعلم الباطن، كتلك التي يستوحيها من شعر الخمريات، ومن شعر

69. الديوان السابق/59

الغزل، ويوجهها إلى أغراضه الخاصة. وهي بهذا الغموض تمثل إشكالية دلالية، تشيع في الأدب الصوفي بشكل عام.

4. أظهر سمة تتجلى في أسلوب شعر علي آدم بحر هي سمة التكرار، وقد اتخذت أشكالاً تتنوع ما بين تكرار الكلمة، و تكرار الجملة، وتكرار صدر البيت بكامله، على نحو يبلغ اثنتي عشرة مرة في بعض قصائده.
5. يقف قارئ شعر على آدم بحر على استدراكات عدة، نلمسها في الغلو الصوفي، وبعض الاستدراكات اللغوية. وهي في مجملها لا تحط من مكانة الشاعر، ولا تنقص من القيمة الفنية لشعره، وإذا تجاوزنا هذه الملاحظات، فهو شعر جيد، يمتاز بالجزالة والفصاحة، واستقامة الأسلوب، وروعة التصوير.
6. تضمن شعر علي آدم بحر موضوعات فلسفية غامضة، كموضوع أصل الوجود، والنور المحمدي، والفيض الرباني، والحضرة العظمى، وهي مسائل أثير حولها جدل كبير، ووجدت القبول والحفاوة لدى البعض، وردت ورفضت من آخرين.
7. شعر على آدم بحر شعر جيد - في أغلب قصائده - تتوفر فيه المقومات الفنية، إلا أنه لا يكون مرآة صادقة عن حياة المجتمع التشادي، بقدر ما يكون مرآة عن الخلوة التيجانية التي تأصلت في (مايدوغري) حيث شيوخ الطريقة التيجانية، لأنه لم يتناول قضايا عصره ولا مصره.

التوصيات والاقتراحات:

1. نوصي بإجراء دراسات نقدية أعمق في شعر على آدم بحر، تتناول الصورة الفنية، بل دراسات نقدية لمنتوج شعراء التيار الديني في تشاد كافة.
2. نوصي الجهات المعنية بأمر الثقافة في القطر التشادي – رسمية كانت أم أهلية أم خاصة - بطباعة دواوين الشعراء التشاديين، وطباعة أطروحات الدكتوراه، ورسائل الماجستير والمتريز ونشرها، لا سيما التي تناولت اللغة العربية وآدابها في الساحل الإفريقي، لأن هذه الأعمال العلمية تعد من بواكير ما سجل للأدب في هذه المنطقة. سعيا إلى إبراز الأدب العربي في إفريقيا السوداء والتعريف به.

قائمة المراجع:

أولاً القرآن الكريم:

ثانيًا الكتب المنشورة:

1. إبراهيم بن إنياس الكولخي: ديوان نزهة الأسماع والأفكار في مديح الأمين ومعاني المختار، مطبعة مي أدمو التيجانية، ط2، بدون تاريخ،
2. د.بكري الشيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار الشروق، ط1 بيروت 1973م.
3. الخطيب التريزي: الكافيى في العروض والقوافي، تحقيق حسن عبد الله الحسناوي، مطبعة خانجي وحمدان، بيروت، ب ط، ب ت
4. دانيال رينغ: لاروس البيل الوسيط، (فرنسي عربي)، السربون، ط1983،3م
5. شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، ط7، القاهرة، 1979.6
6. صالح آدم بيلو: من قضايا الأدب الإسلامي، دار المنار للنشر ن جدة 1405هـ.
7. القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط2، بيروت 1981م.
8. علي آدم بحر: ديوان شعر علي آدم بحر (غير منشور).
9. محمد الأمين عمر: الشيخ أبو بكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان، مطابع الزهراء للإعلام العربي، ط1، القاهرة، 1998م.
10. محمد البوصيري: بردة المديح، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، 1972م.
11. د. محمد فوزي مصطفى: الاتجاه الإسلامي في الشعر التشادي، العالمية للطباعة والنشر، ط1، المنصورة، 2003م.
12. د. محمد فوزي مصطفى: فن المديح النبوي في الشعر التشادي رؤية تحليلية فنية، بحث مقدم إلى ندوة عالمية الأدب الإسلامي، جامعة الملك فيصل بتشاد، 5-8 أكتوبر 2002م، غير منشور.

13. د. محمد كامل التقي: أدب العصر المملوكي، الهيئة المصرية للكاتب، القاهرة، 1976م.
14. نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر دار العلم للملايين، ط8، بيروت، 1989م.

ثالثًا لدوريات:

مجلة فضاءات للفكر والثقافة والنقد، دورية، المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس العدد 10/نوفمبر/2003م. إسحاق محمد علي: (إشكالية الشعر الصوفي جدل الظاهر والباطن) .

رابعًا الرسائل والمخطوطات:

1. أحمد الرفاعي محمود: الشعر الديني الصوفي في تشاد من 1900 إلى 1960، رسالة مقدمة إلى قسم اللغة العربية بكية الدراسات العليا بجامعة الملك فيصل بتشاد، لنيل درجة دكتوراه السلك الثالث، سنة 2005.
2. أمين علي دهب: شعر علي آدم بحر دراسة فنية، بحث مقدم إلى قسم اللغة العربية بكلية الدراسات العليا بجامعة الملك فيصل بتشاد، سنة 2005 تكميلا لمتطلبات التخرج في دبلوم الدراسات المعمقة.

خامسًا المواقع الالكترونية:

1. الموسوعة الحرة، *Wikipedia.org*

صفحة محبي الشيخ محمد